المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
**AL- Madina in the era of AL-Resala
astudy in the elements of unity and varity**

أ.د. سالمة محمود محمد *

ملخص البحث:

على مر الأزمنة من بعثة النبي محمد (ﷺ) وإلى الآن، وفي كل مرحلة من مراحل حياتنا العلمية والعملية نحتاج إلى سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام كي ننهل من منهلها الصافي، لتكون لنا مناراً يضيء طريقنا ودرساً وعبرة لحاضرنا ومستقبلنا لأنها المنبع الروحي والتربوي لنا وللأجيال القادمة.

وفي هذا البحث نستلهم من سيرة نبينا (ﷺ) عناصر قوة المجتمع الموحد الذي بناه النبي عليه الصلاة والسلام معتمداً على الوحدة والتنوع فيه، وضمان حقوق جميع مواطني دولته. تضمن البحث مقدمة ومحاوراً أساسية في عناصر الوحدة والتنوع في الجوانب الاجتماعية والدينية والاقتصادية والعسكرية في مجتمع المدينة المنورة الذي غرس فيه رسول الله قيم المحبة والاحترام والتعاون بين جميع سكانه، وأخيراً الخاتمة.

كلمات مفتاحية: تاريخ إسلامي، سيرة نبوية، حضارة إسلامية، الوحدة والتنوع.

* جامعة الموصل/ كلية العلوم الاسلامية.

Abstract:

Over time from the mission of prophet Muhammad (pbuh) till now we need his biography in all aspects of our life to take the purified lessons to be a beacon that lights our present and future for it is a aspiritual and educational forsas as well as for coming generations.

This research deals with the biography of prophet Muhammad (pbuh) for its a power for the united society which prophet Muhammad built deperding on its unity and variety as a gurantie to the rights of their citizenes.

The research also basic axes in the elements of unity and variety in the religious, social, economit and military aspent in AL-Madina society in which the prophet Muhammad (pbuh) instilling the values of love, respect and co-operation among its residentsiens.

Keywords: Islamic history, biography of the Prophet, Islamic civilization, unity and diversity.

المقدمة:

إن المتعارف عليه أن تُكتب: مؤلفات الوحدة والتنوع للموازنة أو المقارنة بين دولتين أو إمارتين ذلك لرصد أوجه التشابه والاختلاف بينهما، إلا أن هذا البحث يتناول دولة واحدة حديثة النشأة حكمها الرسول (ﷺ) من هجرته إلى وفاته، وهي دولة المدينة المنورة لتستمر بعده وتتوسع إلى دولة إسلامية واسعة امتدت من حدود الصين شرقاً إلى فرنسا غرباً ، مرتكزة على الأساس القوي الذي أقامه الرسول (ﷺ) لبنائها باعتماده على الوحدة الكلية لهذه الدولة، مع تنوع كل العناصر الأخرى داخلها، والتي كانت من أسباب تقدمها وازدهارها، ودافعاً لاستمرار وبقاء هذه الدولة لقرون طويلة، لأن قوتها كانت قائمة على أسس سليمة وقوية، ذلك أن الإسلام نظام كامل يشمل الدين والدولة، وتعاليمه بنيت على التشريع في كل من المجال الديني، والاجتماعي، والاقتصادي، والعسكري بأسلوب جمع بين العقيدة والتشريع وبين العبادات والمعاملات.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

المبحث الأول: الوحدة والتنوع الديني والاجتماعي في المدينة المنورة في عهد الرسول (ﷺ):

قبل الدخول في موضوع الوحدة والتنوع لا بد أن نوضح بعض الأمور التي تخص المدينة المنورة ومنها:

أولاً: موقع المدينة المنورة :

تقع المدينة المنورة على بعد ثلاثمائة ميل إلى الشمال من مكة أي ٤٣٨/٦٢ كم^(١)، وهي أرض بركانية بين حرتين^(٢) الحرة الشرقية وتسمى حرة واقم، وحرة غربية تسمى حرة الوبرة، وفي شمالها يقع جبل أحد^(٣).

وحرة واقم كانت أكثر عمراناً من الوبرة، وكانت حين هجرة النبي (ﷺ) مسكونة بأهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة، وعدد من عشائر اليهود الأخرى، كما كانت تسكنها أهم بطون قبيلة الأوس بنو عبد الأشهل، وبنو ظفر، وبنو حارثة وبنو معاوية^(٤).

ثانياً: سكان المدينة عند هجرة النبي (ﷺ):

كانت المدينة المنورة منقسمة إلى عدة مناطق تسكنها قبائل عربية ويهودية، فاليهودية كانت ثلاث وهي قينقاع، والنضير، وقريظة، وإلى جانبها بطون وعشائر يهودية متفرقة، وذكر السمهودي أنها كانت أكثر من عشرين بطناً^(٥).

وأختلف المؤرخون في أصل يهود يثرب، أهم عرب تهودوا، أم هم إسرائيليون نزحوا، فقد ذكر اليعقوبي أن بني النضير وبني قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية تهودوا وسموا باسم المكان الذي

(١) للمزيد عن الميل ينظر: محمد، علي جمعة: المكايل والموازين الشرعية، ط٢، القدس للاعلان والنشر (القاهرة ٢٠٠١)، ص ٥٣.

(٢) الحرة أرض بركانية وجمعها حرار ويقال لها اللابة واللوبة وقد تكونت بفعل البراكين. للمزيد ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب، تحقيق: مجموعة من الأساتذة في دار المعارف، دار المعارف، (القاهرة، د.ت)، ج ٢، ص ٨٢٩.

(٣) ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ١٢٢٩هـ/١٨١٣م): معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، ١٩٧٧)، ج ٥، ص ٨٢-٨٧.

(٤) الشريف، أحمد: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، (مصر، د.ت)، ص ٣١٢.

(٥) للمزيد ينظر: السمهودي، علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، اعتنى به: خالد عبد الغني محفوظ، مج ١، ج ١، ص ١٢٦-١٣٢.

نزلوا فيه^(١) أما عامة المؤرخين العرب فيميلون إلى الرأي الثاني أنهم إسرائيليون وأن العرب الذين تهودوا لم يكونوا سوى أفراد، ولم يكونوا جماعة قبلية، هذا إلى جانب أن اليهود أنفسهم لم يكونوا يميلون إلى نشر ديانتهم بين الأمم، إذ من المعروف أن الديانة اليهودية ليست تبشيرية، وإنما ديانة مغلقة تتبع العرف اليهودي المعروف بين بني إسرائيل^(٢) ومما يؤيد هذا أنه كان إلى جوار اليهود بالمدينة بطون عربية قبل مجيء الأوس والخزرج، وقد بقيت هذه البطون على أديان آبائهم القديمة ولم تعتنق اليهودية^(٣).

أما لغة اليهود في المدينة فكانت العربية، إلا أنها كانت تشوبها الرطانة العبرية، لأنهم كانوا يستعملون العبرية في صلواتهم ودراساتهم^(٤) وكان لليهود في المدينة كيان طائفي وديني، وكان لهم معابد ومدارس، وأحبار وربانيون^(٥).

أما القبائل العربية فهم الأوس والخزرج وهم من قبيلة الأزدي من اليمن، هاجروا منها بسبب انهيار سد مأرب، ونزلت الأوس والخزرج يثرب^(٦)، وكان العرب في وقت هجرة النبي محمد (ﷺ) إلى المدينة المدينة المنورة أصحاب الكلمة العليا، وبيدهم كان توجيه الأمور بها، وكانت كل قبيلة منهما تنقسم إلى خمسة بطون كبرى، لتتنقسم بدورها إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر، حتى بلغت البطون المعروفة من القبيلتين أكثر من أربعين بطناً، عدا من كان يعيش معهم من عشائر عربية أخرى كانت تربطهم بها رابطة الولاء^(٧)، أما عن زمن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب، فمن المحتمل أن تكون منذ القرن الرابع الميلادي^(٨)، وعند وصولهم إلى يثرب سكنوا مع اليهود وحالفوهم، ثم ما لبثوا لبثوا أن تغلبوا عليهم ونقلوا السلطة إليهم^(٩).

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م): تاريخ اليعقوبي، (بيروت، ١٩٦٠)، ج ٢، ص ٣٦.

(٢) الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٢٣؛ المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية (الموسوعة الموجزة في جزأين)، ط ٣، دار الشروق، (القاهرة، ٢٠٠٦)، ج ٢، ص ٢٦.

(٣) الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٢٧.

(٤) ولفنسون، إسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب، مطبعة الاعتماد، (مصر، ١٩٢٧)، ص ٢٠.

(٥) كلمة حبر عبرية الأصل وتعني الرفيق، وكانت تطلق في عهد الرسول (ﷺ) على كل متعلم من اليهود. المصدر المصدر نفسه، ص ٧٠-٧١.

(٦) ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٣ أو ٢١٨هـ/ ٨٢٨ أو ٨٣٣م): السيرة النبوية، علق عليها وخرج أحاديثها: عمر عبد السلام تدمري، ط ٣، دار الكتاب العربي، (بيروت، ١٩٩٠)، ج ١، ص ٢٩؛ السمهودي: وفاة الوفا، ج ١، ص ١٣٢-١٤٢.

(٧) الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٣٣.

(٨) الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٣٩.

(٩) للمزيد عن تمكن الأوس والخزرج في المدينة ينظر: السمهودي: وفاة الوفا، ج ١، ص ١٤٢-١٤٨.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

ودأب اليهود على زرع الفتن لإثارة الصراعات والخصومات بين الأوس والخزرج وخلق الشقاق بينهما، وهذا ما أدى إلى إنكفاء الشقاق وأثار الفتن والعداوة، وقيام الحروب المستمرة، وكان آخرها يوم بُعث قبل هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة بخمس سنوات، والتي هزم الأوس الخزرج، وقد ذكرت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ذلك اليوم (بُعث) أنه كان سبباً في إقبال أهل المدينة على الإسلام بقولها: ((كان يوم بُعث يوماً قدمه الله عز وجل لرسوله (ﷺ) ...))^(١)، إذ بدأ الأوس والخزرج بعد ذلك في البحث عن حلٍ جذري لظروفهم الصعبة واقتتالهم مع بعضهم مع وجود اليهود بينهم وما يفرضونه من تحدي عقائدي لهم^(٢)، في الوقت نفسه كانت أحوال الرسول (ﷺ) والمسلمين في مكة يشوبها الكثير من عدم الاستقرار وفقدان الأمان، وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يبحث عن موطن جديد لنشر الدعوة الإسلامية غير مكة والطائف التي حاول نشر الدعوة فيها، إلا أن أهلها تصدوا له^(٣)، عندها وجد (ﷺ) أنه قد آن الأوان لعرض نفسه على أهل يثرب من الأوس والخزرج، وهكذا جاءت اللقاءات بينه (ﷺ) وأهل يثرب، وتمت بيعة العقبة الأولى والثانية، ثم هجرة المسلمين بعد أن أذن لهم الرسول (ﷺ) بالهجرة إلى يثرب بعدها جاءت هجرة الرسول (ﷺ) إليها بعد أن أذن له الله سبحانه وتعالى في الهجرة^(٤).

ثالثاً: الرسول وسكان المدينة في وثيقة المدينة:

عمل الرسول (ﷺ) منذ وصوله إلى يثرب التي سميت بالمدينة المنورة بعد هجرته إليها على بناء دولته من هذه القبائل والمكونات المختلفة من العرب، وهم الأوس والخزرج والذين آمن به الكثير منهم وأطلق عليهم اسم الأنصار، واليهود وهم يدينون باليهودية، ثم المهاجرون وهم المسلمون الذين

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م): الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسنته وأيامه، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، (دمشق، ١٤٢٢هـ)، ج ٥، ص ٦٧؛ ابن حنبل، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م): المسند، المكتب الإعلامي للطباعة والنشر، ط ٢، (بيروت، د.ت)، ج ٦، ص ٦١؛ البيهقي، أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م): دلائل النبوة ومعرفة أقوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٨٥)، ج ٢، ص ٤٢١.

(٢) الملاح، هاشم يحيى: الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، دار ابن الأثير، (الموصل، ٢٠٠٤)، ص ١٧٠.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٧٩-١١٧؛ الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط ٢، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٦٧)، ج ٢، ص ٣٤٤-٣٤٦؛ البيهقي: دلائل النبوة، ج ٢، ص ٤١٥.

(٤) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ٧٩-١١٧؛ البخاري: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٥٤-٥٥.

هاجروا من مكة وسكنوا المدينة المنورة^(١)، لقد أدار الرسول (ﷺ) دولته بالعدل وأشاع مفهوم تقبل الآخر، وهم اليهود الذين بلغ عددهم في المدينة وقت إصدار الرسول (ﷺ) لوثيقة المدينة (٤٠٠٠ فرداً) وهم أهل كتاب يختلفون عقدياً مع جماعة المسلمين، لكنهم يشتركون معهم في إطار الدولة الواحدة، وقد حددت وثيقة المدينة ما لهم من حقوق، وما عليهم من التزامات وواجبات يقضيها العيش المشترك، وقد ورد ذكر اليهود في الوثيقة (٢١) مرة، وبصيغ مختلفة، ابتداءً من الفقرة السادسة عشر التي نصت على ((... وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم...))^(٢).

أما الأمر الثاني هم العرب المشركون، وكان عددهم عند دخول الرسول (ﷺ) المدينة (٤٥٠٠) فرداً^(٣)، وهم وثنيون يختلفون عقائدياً مع المسلمين، وقد ورد ذكرهم في الوثيقة مرة واحدة فقط في سياق الحديث عن اليهود في الفقرة (٢٠) التي نصت على: ((وأنه لا يجير مشرك مאלاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن))^(٤).

وكان دافع الرسول (ﷺ) لكتابة الوثيقة هو تنظيم الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لسكان المدينة من المسلمين وغير المسلمين، فضلاً عن تنظيم علاقتهم مع المسلمين... وهكذا كانت الوثيقة أول دستور حدد ملامح دولة الإسلام، ولم يفرق بين مواطنيها من حيث اللون أو العرق أو الجنس^(٥).

لقد اعترفت الوثيقة بحق المواطنة كحق أصيل من حقوق الآخر، ضمن حدود المدينة طالما يلتزم بما جاء بالوثيقة بغض النظر عن الديانة التي يعتنقها، مع ترك الباب مفتوحاً للانضمام لهذه الدولة، وقد ورد في الفقرة (١) التي وردت بالوثيقة ((... ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم)) والفقرة (٢٥) التي نصت على ((وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين...)) فكل هذا يدل على أن الإسلام يقبل فكرة تأسيس مجتمع متنوع في دولة واحدة، ونظام الحكم هو الإسلام، ويتمتع الجميع فيها بحق المواطنة الكاملة^(٦).

(١) بولاج، علي: وثيقة المدينة المنورة: وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، مقال منشور على الموقع الإلكتروني : www.rabitat-alwaha.net

(٢) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٤.

(٣) بولاج، وثيقة المدينة.

(٤) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٤.

(٥) جمعة، علي: وثيقة المدينة ودستور المواطنة، مقال منشور على الأنترنت. www.digital.ahram.org.eg

(٦) شمس الدين، محمد مهدي: في الاجتماع السياسي الإسلامي، ط٢، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٩٩)، ص٢٦٦.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

ثم جاءت معالجة النبي (ﷺ) للمشاكل والحروب بين قبيلتي الأوس والخزرج عن طريق إزالة أسباب هذه المشاكل ثم التعامل معهم بالمساواة والعدل، وبنى مجتمع المدينة بين الأنصار والمهاجرين عن طريق المؤاخاة^(١) بعد أن كان قد آخى بين المهاجرين أنفسهم^(٢) كل هذه الأمور وحدت المجتمع الإسلامي على أساس الأخوة الإسلامية القائمة على الإيثار والمحبة والتعاون بين الجميع.

وكان مع سكان المدينة فئة أخرى عدا المسلمين من الأنصار والمهاجرين، واليهود، أو المشركين من العرب، وهم فئة المنافقين مجموعة من أبناء الأوس والخزرج دخلوا الإسلام من غير إيمان حقيقي، فكانوا يظهرن الإسلام ويبطنون الشرك^(٣) وكان أكثرهم خطراً وإيذاءً للرسول (ﷺ) وللمسلمين عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه أطاعوا الرسول ودخلوا بالإسلام، فضغن على الرسول (ﷺ) معتقداً أنه سلبه ملكه، ثم أعلن إسلامه كارهاً ومصرراً على نفاقه^(٤).

كان الرسول (ﷺ) قد أعطى اليهود اعترافاً بوجودهم وحریتهم عبر بنود وثيقة المدينة التي اعترفت باليهود كل حسب تبعيته بالولاء مثل يهود بني عوف، وبني النجار...، وأكدت الوثيقة على حریتهم الدينية وإقامة معابدهم وأداء صلواتهم، فكانت حریتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وعدتهم مواطنين ينتمون إلى دولة الرسول (ﷺ)^(٥)، مع أنهم رفضوا الاعتراف بنبوته.

-
- (١) السمهودي: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٠٧؛ الملاح: الوسيط في السيرة، ص ١٩٢؛ عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: عصر النبوة والخلافة، شركة السفير، (القاهرة، ١٩٩٦)، ص ٣٣.
- (٢) ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م): عيون الأثر في فنون المغازي، الشامل والسير، تعليق: إبراهيم محمد، دار القلم، (بيروت، ١٩٩٣)، ج ١، ص ٤٤؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٠٧.
- (٣) الملاح: الوسيط، ص ٢٤٥؛ العربي، محمد ممدوح: دولة الرسول (ﷺ) في المدينة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر، ١٩٨٨)، ص ٢٠٧.
- (٤) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ٢٦٦.
- (٥) للمزيد ينظر: زريق، برهان: الصحيفة ميثاق الرسول، دستور المدينة المنورة - أول دستور لحقوق الإنسان، ط ٣، (د.م، ٢٠١٥)، ص ٣٤٧-٣٦٧.

رابعاً: مظاهر التنوع الاجتماعي والديني:

أتضح لنا التنوع الاجتماعي والديني التي حظيت به المدينة المنورة على عهد النبي محمد (ﷺ) بوحدة المجتمع الذي بناه عليه الصلاة والسلام، قبل أن يخون اليهود عهودهم وينقضوا كل المعاهدات مع الرسول مما اضطره إلى إخراجهم من المدينة^(١).

فكانت المدينة تضم جميع المسلمين من الأنصار والمهاجرين من كل القبائل العربية، الذين دخلوا الإسلام، وكان انتمائهم له على حساب انتمائهم العشائري أو القبلي^(٢) وأكد الرسول (ﷺ) على مبدأ الوحدة بين المسلمين، ودم كل أفكار الجاهلية والقبلية منها قوله (ﷺ): [.. ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية...]^(٣).

وهكذا فإن الأمة تكونت من تجاوز الحدود القبلية، ووضعت مصلحة الأمة فوق كل مصلحة أخرى، مع بقاء القبيلة وحدة اجتماعية، إلا أن الرسول (ﷺ) حاول أن يذيبها في الأمة^(٤) وعمل على مكافحة العصبية ورابطة الدم، وأحل محلها رابطة العقيدة الإسلامية، وأبدل أفكار الغزو والثأر بأفكار الجهاد في سبيل الله والدين، وعن طريق الدين أدخل الرسول (ﷺ) فكرة الدولة والقانون بدل القبيلة والأعراف، فالدولة كانت باسم الله، وجعل من الشريعة هي القانون السائد في دولته (ﷺ)، فكانت الدولة هي الأمة، وكانت السلطة الدينية والدنيوية بيد الرسول (ﷺ) يستمدها من نبوته، فكانت متلازمة لأن الدين هو الذي يوحد الأمة^(٥).

وترك الإسلام للأفراد حرية العمل والتملك والتصرف بما يملك، وفي الوقت نفسه، وفر للفرد الحماية وعدم التعدي عليه أو التعرض لممتلكاته، غير أن المسؤولية تقع على الجميع في حماية هذه الدولة (الأمة)، الفرد والجماعة، إلا أن الجماعة كان ينوب عنها الرسول (ﷺ) كونه نبياً يأخذ الأوامر الشرعية من الله، ومع هذا كان العمل بمبدأ الشورى الذي تبناه الرسول في اتخاذ قراراته هو المبدأ السائد^(٦).

(١) للمزيد ينظر: ابن هشام: السيرة، ج ٣، ص ٩، ص ١٤٣، ص ١٨٩.

(٢) الدوري، عبد العزيز: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مكتبة المثنى، مطبعة المعارف، (بغداد، ١٩٤٩)، ص ٤٣.

(٣) أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م): سنن أبو داود، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية، (بيروت، ١٩٨٨)، رقم الحديث ٥١٢١.

(٤) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص ٤٣.

(٥) المصدر نفسه؛ الملاح: الوسيط، ص ٢٠٨؛ العربي: دولة المدينة، ص ١٥٩.

(٦) بطاينة، محمد ضيف الله: الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، دارب ومكتبة الكندي للنشر والتوزيع مكتبة طريق طريق العلم، (الأردن، ٢٠١٤)، ص ٨٦-٨٩.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

وقامت دولة الرسول (ﷺ) على مبدأين، أولهما: هو حرية الأديان التي أقرتها الدولة الإسلامية وسمحت بها، بل أنها تتعهد برعايتها، وثانيهما: هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحاً وإنسانيةً، وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم^(١).

ومن أجل إشاعة روح الأمن والسلام بين الناس فقد نصت الوثيقة على أن ((..يُثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة..))^(٢)، وهكذا أعطت لمسألة السلام بعداً دينياً^(٣)، فكما أن مكة حراماً لا يجوز فيها القتل وسفك الدماء لأن فيها بيت الله الحرام، فكذلك الأمر بالنسبة ليثرب لأنها مدينة رسول الله (ﷺ)^(٤).

ثم أن الوثيقة أكدت الحرية الدينية في الفقرة (٢٥) وكما يلي: ((... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم...))^(٥)، وأكدت الفقرات (٢٦-٣٥) هذا الأمر، ليكون إقرار الحق في الحرية الدينية والتنوع الديني داخل المدينة والتنوع الاجتماعي وممارسة الحرية الدينية المطلقة^(٦).

-إجراءات الرسول (ﷺ) في المدينة لخلق التنوع الاجتماعي والديني:

جاء اهتمام الرسول (ﷺ) بمجتمع المدينة عبرّ تقليل الفوارق الطبقيّة، والتدرج في إلغاء الرق، وإعلاء شأن المرأة، وتحريم المسكرات^(٧).

وكانت المفاضلة بين الناس هي التقوى، وأن الجميع متساوون، ولا فضل لأحد من الناس على غيره كما قال ذلك (ﷺ) في خطبة الوداع: ((لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى))^(٨).

(١) الشريف: مكة والمدينة، ص ٤٠٨.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ١٤٥.

(٣) العلي، صالح أحمد: الدولة في عهد الرسول، ص ١٠٩؛ الملاح: الوسيط، ص ٢٠٩.

(٤) البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه: رضوان محمد، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٧٨)، ص ٢٢.

(٥) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ١٤٤.

(٦) بباوي، نبيل لوقا: حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، دار السعادة للطباعة، (القاهرة، ٢٠١٠)، ص ١٦٦.

(٧) العربي: دولة الرسول، ص ٢٠٢؛ بطاينة: الحياة الاجتماعية، ص ٨٤-٨٥.

(٨) ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد الدمشقي (ت ٧٩٢هـ/١٣٨٩م): شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: جماعة من العلماء، خرج الأحاديث: ناصر الدين الألباني، ط ٩، المكتب الإسلامي، (بيروت، ١٩٨٨)، ج ٢، ص ٥١٠.

لذلك ذاب كل التنافس القبلي الموجود قبل الإسلام لتبرز هوية جديدة لأبناء هذه القبائل، وهي هوية الإسلام الذي تمحور ولأنهم حوله، وتوثق انتمائهم له على حساب الانتماء القبلي والعشائري^(١)، وهذا ما ذكرته المادة^(٢) الأولى من بنود الصحيفة أن جميع المؤمنين والمسلمين على اختلاف قبائلهم أمة واحدة، لأن الإسلام أصبح هو الرابطة الوحيدة التي تربطهم بدلاً من القبيلة والعصبية^(٣).

وعاملت الوثيقة التي كتبها الرسول (ﷺ) لتنظيم أمور المدينة ومجتمعها، جميع فئات المجتمع المدني بالمساواة في الحقوق والواجبات، دون تفضيل بينهم لتسود العدالة، لهذا جاء^(٤) تأكيد توثيق الصحيفة الصحيفة على أنه لا يجوز لمؤمن آمن أن ينتصر لظالم، أو أن يؤويه خلافاً لما حددته الصحيفة وارترضاه المجتمع، ولا يجوز له أن يخالف مبادئ الصحيفة بدعوى القرابة أو العقيدة أو المصالح الشخصية، لأن هذا سيكون تهديداً لأمن المجتمع المدني^(٥).

قدر الإسلام للفرد أن يعمل ويتملك ويتصرف بما يملك تقديراً لشخصه وفرديته وأن يعطي مما يملك (بالزكاة وغيرها) تعبيراً عن عضويته في الجماعة ضمن اتجاه فعل الخير وفعل الأفضل الذي حدده الإسلام^(٦).

وأوجد الإسلام التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع المدني، مع الحفاظ على ممتلكات الأفراد، فقد أوردت الوثيقة: ((المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين))، وهكذا عدت الصحيفة كل شرائح المجتمع المدني كل باسمه^(٧).

لقد ضمن الرسول (ﷺ) حقوق جميع المواطنين في دولته، وتمتعوا بكل الحقوق، مثل حق ممارسة الطقوس الدينية والعبادات، وحق كسب المال بالطرق المشروعة، وحق الحماية، وحق السكن، والعمل وجاء ذلك كله في الوثيقة التي أكدت على احترام حقوق الغير في الدين والعقيدة،

(١) المباركفوري، صفي الدين: الرحيق المختوم، ط٨، دار المعرفة، (بيروت، ٢٠٠٧)، ص١٨-٤١.

(٢) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٢.

(٣) العربي: دولة الرسول، ص١٧٢.

(٤) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٥.

(٥) العربي: دولة الرسول، ص١٧٣.

(٦) بطاينة: الحياة الاجتماعية، ص٨٦-٨٧.

(٧) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٤؛ العربي، دولة الرسول، ص١٧٢؛ الشريف: مكة والمدينة، ص٤٢١.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

((المؤمنون والمسلمون أمة واحدة من دون الناس ... وبينهم النصح والنصيحة ونصرة المظلوم))^(١).

إن الوحدة والتنوع سنة من سنن الله التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾^(٢).

وفي ظل السنن الكونية هذه عاش المسلمون مع غيرهم ما داموا لا يشكلون تهديداً أو خطراً عليهم، ولم يتعاونوا مع العدو ضد المسلمين^(٣).

وعندما حارب الرسول (ﷺ) قبائل اليهود لم يكن بسبب الاختلاف معهم في الدين، بل كان بسبب نقضهم للمعاهدات التي عقدها معهم، ثم بسبب تأليبهم القبائل المشركة ومعاونتهم ضد الأعداء^(٤). عدل الرسول (ﷺ) بعض العادات والتقاليد القبلية، ومنها أخذ الثأر من لدن الأقارب جعله على عاتق الأمة، وبذلك حوله من ثأر إلى عقوبة مدنية، وأكدت الصحيفة على ضرورة إيقاع القصاص على الجاني من لدن الجماعة^(٥) على وفق مبادئ الحق والعدل وقد جاء فيها: ((وأنه من أعتبط مؤمناً قتلاً عن بيته، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة ...))^(٦).

وحرم الربا حفاظاً على المجتمع المدني، وهو وباء المجتمع المكي، ومنع اكتناز الذهب والفضة وحث على إنفاقهما في سبيل الخير، وشجع الصدقة بمعنى الهبة أول الأمر، ثم أصبحت فرضاً لازماً بالزكاة يدفعه الأغنياء لمساعدة الفقراء للتقليل من التفاوت الاجتماعي^(٧).

وقد أوردت الوثيقة: ((...المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين...))^(٨) ، وهكذا عدت الصحيفة كل شرائح المجتمع المدني كل

(١) الكلاعي، سليمان بن موسى (ت ٥٦٣هـ/١٢٣٦م): الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله، تحقيق: كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، (بيروت، ١٤١٧هـ)، ج ١، ص ٣٦٠.

(٢) سورة: هود: الآيتان ١١٨-١١٩.

(٣) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ١، ص ١٢٧.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج ١، ص ٣٤٤.

(٥) الملاح: الوسيط، ص ٢٠٩؛ الشريف: مكة والمدينة، ص ٤٢١.

(٦) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ١٤٣.

(٧) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص ٤٧-٤٨.

(٨) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص.

باسمه، وأكدت وثيقة المدينة على حفظ الجار كالنفس تماماً، وقد جاء فيها: ((... وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم...))^(١).

هكذا كان حرص الرسول (ﷺ) على بناء دولته بإصدار وثيقة المدينة التي أرست دعائم المجتمع المدني الموحد المبني على أساس التنوع الاجتماعي والديني ووحدة المجتمع تتبع من شعور أبناءه بأنهم مسؤولون عن إدارة شؤون دولتهم الذي طبق على مبدأ ((وأمرهم شورى بينهم)) وقوة الدولة كانت بوحدتها النابعة من التنوع الديني والاجتماعي والمعتمد على اقتصاد متنوع وموحد ومتكامل الأركان.

المبحث الثاني: الوحدة والتنوع الاقتصادي في المدينة المنورة في عهد الرسول (ﷺ): أولاً: الخصائص الطبيعية للمدينة المنورة:

تمتعت المدينة المنورة بتوفر الكثير من الظروف الجغرافية والمناخية التي جعلت منها منطقة زراعية ممتازة منها خصوبة الأرض وتوفر المياه التي تجري في الوديان أو مياه الآبار وساعد تطويق الجبال والحرار البركانية على جعل تربتها جيدة وعالية الخصوبة وعمل ذلك التكوين الذي يشبه الحوض الجبلي على حجز المياه الجوفية العذبة، وسهل الوصول إليها في أي مكان داخل المدينة، عند حفر الآبار، وكانت المدينة مقسمة إلى مزارع متباعدة كل منها بقرب مصدر المياه، وكانت كل قبيلة تسكن في أماكن محددة لها وفيها بساتين وحدائق ونخيل، وكانوا يعملون فيها بأنفسهم وغالباً ما يشمل البستان على بئر خاصة به، وهذه الآبار منها يستقون للشرب، ومنها لسقي المزروعات والاستعمالات الأخرى للإنسان^(٢)، وكانوا يرفعون الماء من الآبار مستخدمين الإبل، واستخدموا البقر لحرث أراضيهم^(٣).

وعند هجرة النبي (ﷺ) والمسلمين كانت المدينة مؤلفة من مجموعات سكانية عديدة كل منها يشبه القرية منها: قباء في جنوب المدينة، وزهرة في الشرق، ويثرب وزباله، وراتج في الشمال^(٤). وقد أدرك سكان المدينة المنورة قيمة الأرض وسعوا إلى تملكها، وكان معظم من يعمل في الزراعة يمتلك الأرض التي يزرعها^(٥).

(١) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص.

(٢) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٧٧)، ج ٤، ص ١٣١.

(٣) الكتاني، محمد عبد الحي الحسني الإدريسي، (ت ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م): التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة، تحقيق: عبد الله الخالدي، ط ٢، دار الأرقم، (بيروت، د.ت)، ج ٢، ص ٤٦-٤٧.

(٤) العلي، صالح: الدولة في عهد الرسول، مطبعة المجمع العلمي العراقي، (بغداد، ١٩٨٨)، ص ٢٢.

(٥) العلي، المصدر نفسه، ص ٢٦.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

وبعد هجرة النبي (ﷺ) وأصحابه إلى المدينة المنورة تغيرت الظروف بسبب زيادة عدد السكان فزاد العبء الاقتصادي على المسلمين، فبدأ الرسول (ﷺ) بإجراءات سريعة لحل وتخفيف هذا العبء عن طريق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، الذين شاركوهم بيوتهم وأموالهم^(١).

ثانياً: إجراءات الرسول (ﷺ) الاقتصادية في المدينة المنورة:

ابتدأت إجراءات الرسول (ﷺ) الاقتصادية منذ اللحظة الأولى لعقد بيعة العقبة الثانية، فقد كان أحد شروط البيعة اقتصادياً وهو مبايعة الرسول (ﷺ) على النفقة في اليسر والعسر^(٢).

وجاء الإجراء الثاني بعد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة وكانت ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية صعبة، لأنهم تركوا أموالهم في مكة، فعمل الرسول (ﷺ) على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لحل مشاكل المهاجرين الاقتصادية^(٣)، وهنا وردت بعض الأمور عندما طلب عبد الرحمن بن عوف من سعد بن الربيع وكان الرسول (ﷺ) قد آخى بينهما طلب منه أن يدلّه على السوق^(٤)، وذلك لممارسة التجارة التي تمثل عمل أهل مكة الرئيس .

من إجراءات الرسول (ﷺ) الأخرى عندما عرض الأنصار على الرسول (ﷺ) بساتينهم فقالوا: ((أقسم بيننا وبين أخواننا النخل - فقال: لا - بل: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا))^(٥) وكانت هذه اللبنة الأولى للتكامل الاقتصادي في المجتمع المدني، الذي كان يعمل في الزراعة، بينما يسيطر اليهود على الأسواق والتجارة.

شجع الرسول (ﷺ) المسلمين على العمل وفق ما جاء في آيات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٦).

كذلك ما جاء في أحاديث الرسول (ﷺ) التي تحث على العمل والجد في الحياة منها قوله (ﷺ): ((ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده))^(٧).

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ج ٢، ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٦.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ١٤٦.

(٤) البخاري: الصحيح، ج ٧، ص ١١٢.

(٥) البخاري: الصحيح، ج ٥، ص ٨.

(٦) سورة الملك: الآية: ١٥.

(٧) البخاري: الصحيح، رقم الحديث ٢٠٨٠ .

وشجع الرسول (ﷺ) إحياء الأراضي الموات وزراعتها ووضع قاعدة شرعية لذلك فجاء في حديث الرسول (ﷺ) ((من أضرأ أرضاً ليست لأحد فهي له))^(١) الأعمار هو الإحياء للأرض. وعزز الرسول (ﷺ) المجتمع الإسلامي عن طريق تشجيع المسلمين على إعطاء الصدقات التي كانت طوعية، ثم فرضت بالزكاة فكانت تؤخذ أموال الزكاة من الأغنياء لترد إلى الفقراء، وحسب الآية الكريمة التي عملت على توزيعها ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾^(٢).

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام لجأ إلى توزيع الغنائم التي حصل عليها المسلمون بعد فوزهم في القتال على عدوهم، على المسلمين بناءً على ما نزل في القرآن الكريم من آيات في قوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجُمُعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٣).

كذلك عمل الرسول (ﷺ) على توزيع أموال الفداء التي حصل عليها المسلمون بدون قتال، وفق ما جاء في قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۗ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾^(٤).

وعمل الرسول (ﷺ) على إنشاء أسواق في المدينة المنورة خاصة للمسلمين بعيداً عن سوق اليهود وقد ازدهرت هذه الأسواق في ظل مبادئ وقواعد الإسلام في البيع والشراء^(٥).

واتخذ المسلمون سوقهم مجاوراً للمسجد النبوي من ناحية الشرق في موضع بقية الزبير، إلا أن اليهود شعروا بقوة المسلمين ومنافستهم التجارية وبدأوا بمضايقة المسلمين، عندها نقل الرسول (ﷺ) هذا السوق إلى غرب المسجد النبوي^(٦)، وكان موقع موفق للتجارة بمثابة المدخل الرئيس للمدينة،

(١) البخاري: الصحيح، رقم الحديث ٢٣٤٦.

(٢) سورة التوبة: الآية: ٦٠.

(٣) سورة الأنفال: الآية: ٤١.

(٤) سورة الحشر: الآية: ٧.

(٥) للمزيد عن أسواق اليهود ينظر: السمهودي: وفاء الوفا، ج ٢، ص ٢٥٦.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٥.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

سواء من جهة الشام أو اليمن أو مكة، وكانت سوق المدينة الجديدة بعد الهجرة، رحبة واسعة لا بناء، ولا ظلة فيها^(١).

ثالثاً: تنوع المساعدات الاقتصادية للمهاجرين:

في رواية لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن رسول الله (ﷺ) قال: ((اخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم: فقالوا أموالنا بيننا قطائع. فقال_ أو غير ذلك؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم التمر: قالوا: نعم))^(٢).

وفي المؤاخاة جاءت فقرة التوارث بعد الممات دون ذوي الأرحام^(٣) وكان المهاجرون يرثون الأنصار إلى أن نزلت الآية الكريمة التي حرمت هذا التوارث في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)، وكان البراء بن معرور قد أوصى بثلث أمواله لرسول الله (ﷺ) يضعه حيث يشاء^(٥).

وعن عبد الله بن محمد أن سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من المسلمين يعشيهم^(٦) وكان الأنصار يعلقون عذوق التمر في جوانب المسجد ليأكل منها اخوانهم المهاجرون^(٧).

يتضح لنا التنوع الاقتصادي في المجتمع المدني وذلك باندماج المهاجرين من أهل مكة، وهم أصحاب تجارة، ولم يكن منهم من يعرف شيء عن الزراعة مع أهل المدينة من الأنصار، وهم أهل زراعة لتوفر ظروفها في المدينة من أراضي خصبة ومياه الوديان التي يأتي ماؤها في وقت الأمطار والسيول من الجبال بموضع يقال له حرة بني سليم وهذه الوديان هي وادي بطحان، والعتيق الكبير،

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج٢، ص٢٥٦-٢٦٢.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، (ت١٣٧٢هـ/١٣٧٢م): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، (بيروت، د.ت)، ج٢، ص٣٧٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٢٣٨.

(٤) سورة الأنفال: الآية: ٧٥.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص٦١٩.

(٦) الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، (ت١٠٣٨هـ/١٠٣٨م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، ط٤، (بيروت، ١٤٠٥هـ)، ص٣٤١.

(٧) النووي، أبو زكريا يحيى بن شريف بن مري، (ت٦٧٦هـ/١٢٧٧م): شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، ط٢، (بيروت، ١٣٩٢هـ)، ج٧، ص١٠٧.

والصغير، ووادي قناة، وهذه الوديان تتجمع جميعها في منطقة الغابة وتخرج إلى وادي يسمى وادي أضم، ومنه يتم إرواء الأراضي الزراعية في المدينة المنورة^(١).

رابعاً: التنوع الاقتصادي في المدينة المنورة:

إن المجتمع المدني قبل هجرة النبي (ﷺ) كان يعتمد على الزراعة، إذ تميزت المدينة عن المدن المحيطة بها بالخصوبة ووفرة المياه مما جعل منها بلداً زراعياً، وعند هجرة المسلمين من أهل مكة وهم أهل تجارة اختلطوا بأهل المدينة أهل الزراعة تكون المجتمع المدني المتكامل اقتصادياً مع وجود طبقة ثالثة من أهل المدينة وهم أهل المهن والحرف الذين اشتغلوا بالصناعة^(٢).

١. الزراعة:

لقد ساعدت خصوبة التربة وتوفر مياه الري على ممارسة الزراعة في المدينة المنورة، وكان أغلب سكان المدينة يعملون في الزراعة، وبعد هجرة النبي (ﷺ) إلى المدينة المنورة أتبع وسائل عديدة لحث الناس على الزراعة والتوسع فيها وكان العرف السائد، أن من أحيا أرضاً ميتة فهي له^(٣)، فضلاً عن إقطاع الأراضي الزراعية لمعظم المهاجرين، في وادي العقيق^(٤)، وفي منطقة العالية^(٥)، ومنها أيضاً أعطى أحد المهاجرين من حرة الوادي^(٦) وأعطى غيره بئراً بوادي العقيق^(٧).

وكل هذا التوسع كان خارج المدينة، فأصبحت معظم بساتينها في ظاهرها، محيطة بها^(٨) واتخذ الرسول (ﷺ) إجراءات عديدة للحفاظ على الثروة الزراعية في المدينة منها أنه (ﷺ) منع قطع شجر

(١) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق، (ت بعد ٢٩٢هـ/٩٠٤م): البلدان، تحقيق: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)، ص ٣١٢-٣١٣.

(٢) العمري، أكرم ضياء: المجتمع المدني في عهد النبوة (خصائصه وتنظيماته الأولى)، المجلس العلمي، (المدينة المنورة)، ص ٦٥.

(٣) الإمام مالك بن أنس، بن مالك الأصبجي (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م): الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء إحياء التراث العربي، (د.م)، ١٩٨٥)، ج ٢، ص ٧٤٣.

(٤) ابن حجر، أحمد بن علي، (ت ٨٥٢هـ/٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد، دار المعرفة، (بيروت، د.ت)، ج ١، ص ٢٠٥.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٢.

(٦) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٨٥.

(٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢٤.

(٨) المقدسي، أبي عبد الله محمد، (ت ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ٣، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩١)، ص ٨٠.

* تعريف السدر: هي واحدة من أكثر الأشجار شيوعاً في المنطقة العربية خاصة الصحارى، كثيفة متساقطة الأوراق يصل ارتفاعها من ٢-٤ أمتار تقريباً. ويكيبيديا .

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

السدر إلا للحرث والزراعة^(١)، وفي عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) استمر هذا الإجراء حتى أنه عيّن حارساً مهمته معاقبة من يقطع من أشجار السمر شيئاً^(٢).
ومن الإجراءات الأخرى هي تنظيم عملية سقي المزروعات، فأمر (رضي الله عنه) أن يحبس الماء في الأرض إلى الكعبين، ثم يرسل إلى الأرض الأخرى، وإن لا يمنع الأعلى الأسفل، وهذه كلها من سيل الأودية منها مهزوز ومذنيب وبطحان.
أما في مناطق الحرار والسهول فأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ماءها أن يسقي الأعلى أرضه ثم يرسل إلى جاره حتى وإن كانت تلك المسائل في أرض الأول^(٣).
فضلاً عن مزارع الأنصار فقد ملك المهاجرون كثيراً من الأراضي الزراعية في منطقة الغابة (شمال غرب المدينة)، ومنطقة الحرة الشرقية^(٤).
أما أهم مزروعات المدينة المنورة هو النخيل وهو أكثر أموال أهلها ومنها معاشهم وأقواتهم^(٥)، كذلك كانت تزرع الحبوب، مثل القمح والشعير وكانوا يزرعونها تحت النخل^(٦) والمزارع الخاصة بالحبوب لم تكن موجودة إلا بعد قيام بعض المهاجرين بتولي هذا الأمر، وعملوا على التوسع في زراعة القمح على وجه الخصوص، ويذكر أن طلحة بن عبيد الله التيمي، كان أول من زرع القمح بوادي قناة شمالي المدينة^(٧).

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٨٥. للمزيد ينظر: البخاري: الصحيح، باب سكر الأنهار من كتاب الشرب؛ ابن حجر: فتح الباري، ج ٥، ص ٢٣.

* تعريف السمر: شجرة كبيرة، لها جذع واحد ومتعددة الفروع وهو من فصيلة البقولية. ويكيبيديا.

(٢) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٨٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١١-١٢.

(٥) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٤٠٦-٤٠٧؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٧٣.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٨.

(٧) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٢٢.

ومن المزروعات الأخرى هي الفاكهة ومن أشهرها العنب^(١) كما زرعو البطيخ^(٢) وبعض الخضراوات والبقول، مثل القثاء، والدباء - وهي نوع من القرع، والبصل والثوم^(٣) والجزر^(٤). وكل أنواع المزروعات كانت لسد حاجات أهل المدينة من متطلبات العيش وما يفيض عن حاجتهم يصدر إلى الخارج ويجلب بدله كل ما يحتاجون إليه وهذا أدى إلى نشاط التجارة إلى جانب استخدام الكثير من المواد الزراعية في الصناعة التي نشطت في المدينة المنورة.

٢. الصناعة في المدينة المنورة:

احتلت الصناعة المرتبة الأولى في حياة أهل المدينة فعملوا في النسيج والخياطة، والأدوات المنزلية والحدادة، ودباغة الجلود، والصياغة^(٥) وكما يلي:

تتوعدت الصناعة في المدينة المنورة منها: صناعة الأسلحة للحاجة الماسة لها للحروب، وكذلك الحدادة لصناعة بعض الآلات الزراعية من الحديد^(٦)، وكانت هناك صناعة الخوص وصناعة الحصران معتمدة على أشجار النخيل^(٧)، كذلك الخياطة^(٨) ودباغة الجلود، وصباغة الملابس^(٩) ومارس يهود بني قينقاع الصياغة صياغة الذهب والفضة أو من الحديد^(١٠)، وهذا يدل على حرية اليهود في ممارسة أعمالهم، ومن الصناعات الأخرى هي الغزل والنسيج ومع أن أغلب الملابس النسائية والرجالية كانت تستورد، إلا أن أهالي المدينة مارسوا هذه المهنة^(١١).

(١) كبريت، محمد كبريت الحسيني، (ت ١٠٧٢هـ / ١٦٦١م): الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٤)، ص ٥٥-٥٦.

(٢) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٦١٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٣٩١، ٣٩٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٧؛ الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٨.

(٤) مالك: الموطأ، ج ٢، ص ٦١٩.

(٥) غنيمات، قاسم محمد: الصناع من الصحابة على عهد النبي (ﷺ)، مجلة المجلة، المجلد ٤، العدد ٣٠، السنة ٢٠١٦، ص ٧٣.

(٦) الخزاعي، علي بن محمد بن مسعود، (ت ٧٨٩هـ / ٣٨٧م): تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله (ﷺ) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ١٩٨٥)، ص ٧١٥.

(٧) الخزاعي: المصدر نفسه، ص ٧٢٤.

(٨) المصدر نفسه، ص ٧٠٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ٧٠٢.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٧١٤.

(١١) الخزاعي: المصدر نفسه، ص ٧٠٧.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

وظهرت النجارة لتوفر المواد الأولية من الخشب مثل أشجار النخيل^(١)، كذلك صناعة النقش على المصوغات الذهبية والفضية^(٢)، ومن المهن الأخرى الدلال أو السمسار^(٣) والبناء^(٤) والصيد^(٥) والصيد^(٥) والسقاء^(٦) واللحام (الجزار)^(٧)، وهناك الكثير من الصناعات والمهن التي ظهرت في مجتمع المدينة المنورة على عهد الرسول (ﷺ) مثل الحمال والطباخ والشواء والماشطة وغيرها^(٨).

٣. النشاط التجاري في المدينة المنورة:

لم تنشط التجارة في المدينة قبل الإسلام على الرغم من وقوعها على طريق التجارة بين اليمن والشام بسبب انشغال أكثر أهلها بالزراعة، إلا أن بعد هجرة الرسول (ﷺ) وأصحابه نشطت التجارة في المدينة، وذلك لأنهم من أهل مكة أصحاب الخبرة الكبيرة بالتجارة وشملت المواد التي تاجر بها أهل المدينة التمر لتوفره بكميات كبيرة حتى عُرف بعضهم بها مثل نبهان التمار^(٩) وتجارة الملابس، وكانت تعرف بالبزاة^(١٠) وكانوا يجلبون أنواع البز من بلاد الشام، وعمان، واليمن وزاولها الكثير من الصحابة^(١١).

(١) الخزاعي: المصدر نفسه، ص ٧١١.

(٢) للمزيد عن التنوع الصناعي ينظر: الكتاني، محمد عبد الحي بن عبد الكبير الحسني الإدريسي، (ت ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م): التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة، ط ٢، دار الأرقم، (بيروت، د.ت)، ج ٢، ص ٤٨، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٧٠-٧٧، ١٠٦.

(٣) الخزاعي: تخريج الدلالات، ص ٧٠٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٢٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٧٣٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٧٤٢.

(٨) للمزيد ينظر: الخزاعي: تخريج الدلالات، ج ٩ و ج ١٠.

(٩) الخزاعي: تخريج الدلالات، ص ٧٠٠.

(١٠) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٣، ص ٥٢٠.

(١١) للمزيد ينظر: الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهر، أبو منصور، (ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م): تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، ٢٠٠١م)، ج ١٣، ص ١٧٣؛ الخزاعي: تخريج الدلالات، ص ٦٩١.

ومن المواد الأخرى التي كان يتاجر بها أهل المدينة هي استيراد بعض الأطعمة التي كانت ما تنتجه المدينة منها غير كافية لسد حاجتهم مثل الدقيق، والسمن والعسل^(١) وكذلك العطور^(٢) والأسلحة، وكان نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب يتاجر بالرماح^(٣)، وأيضاً تجارة بيع الحيوانات^(٤) الحيوانات^(٤) وكان لها سوق في المدينة يعرف بسوق البقيع^(٥).

وكانت هناك أسواق للتعامل التجاري والتبادل التجاري ومن أسواق المدينة قبل الإسلام وبعده، سوق زباله، وسوق بالجسر في بني قينقاع، وسوق الصفصاف، والبطحاء وبقيع الخيل^(٦)، وكل هذه الأسواق يباع فيها كل ما تنتجه المدينة من محاصيل زراعية من تمر وشعير وكل ما يجلب إليها من الخارج.

وهكذا شكل النشاط الاقتصادي المتنوع في المدينة المنورة من زراعة وصناعة وتجارة نوعاً من أنواع التعاون الاجتماعي والتكافل الذي يعود بالنفع العام على أبناء المجتمع المدني بكافة طوائفه، لأن كل الأموال مفروض عليها الزكاة التي يخرجها أصحابها لترد إلى فقرائهم.

المبحث الثالث: التنوع العسكري في المدينة المنورة في عهد الرسول (ﷺ)

استمر الرسول عليه السلام يدعو الناس للإيمان بالله تعالى وتوحيده وبيد الإسلام بطريقة سلمية من نزول الوحي ولمدة ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة ولم يلجأ إلى استخدام القوة. إلا أن موقف الرسول (ﷺ) أخذ بالتغيير عندما أيده سكان المدينة المنورة وعقد معهم بيعة العقبة الثانية، والتي عرفت ببيعة الحرب^(٧)، وبعد هجرة النبي محمد (ﷺ) وأصحابه إلى المدينة المنورة، المنورة، وتأكد له عزم قريش وحلفائها القضاء على المسلمين^(٨)، هنا جاءت دعوته للدفاع عن الدين والدين والنفس آخذاً بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٩).

(١) البيهقي، إبراهيم بن محمد، (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م)، المحاسن والمساوي، دار صادر، (بيروت، ١٣٨٠هـ)، ص ١٠٣؛ الخزاعي: تخريج الدلالات، ص ٦٩١.

(٢) الكتاني: الترتيب الإدارية، ج ٢، ص ٥٣؛ الخزاعي: تخريج الدلالات، ص ٦٩٩.

(٣) الكتاني، الترتيب الإدارية، ج ٢، ص ٣٣؛ الخزاعي: تخريج الدلالات، ص ٦٩٣.

(٤) ابن حجر، الإصابة، ج ٣، ص ٥٧٧.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ص ٣١٢-٣١٣.

(٦) السرخسي، شمس الدين: (ت ٤٨٣هـ/١٠٩٠م): كتاب المبسوط، مطبعة السعادة، (مصر، د.ت)، ج ١٤، ص ٢-٣.

(٧) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ٨٩؛ ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٨٨.

(٨) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ١٠٨.

(٩) سورة الحج: الآية: ٣٩.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

وأشارت صحيفة المدينة بكثير من فقراتها إلى الحرب والسلام، ومشاركة الجميع لحماية المدينة والدفاع عن الدين والدولة^(١)، إلا أن الرسول (ﷺ) لم يقاتل إلا بعد أن نزل عليه الوحي بآيات الجهاد والقتال ضد أعداء الدين من المشركين والكفار كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾^(٢).

أما من خالفهم بالدين فإن الإسلام لم يشرع القتال معهم ما داموا مسالمين، وإنما القتال لمن يؤدي المسلمين^(٣) كما في قوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ۗ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾^(٤).

وابتداء الرسول (ﷺ) ببناء دولته (المدينة المنورة) وعمل على حمايتها عن طريق إعداد القوة العسكرية اللازمة للدفاع عنها من الأفراد والسلاح والخيل وكل ما تحتاج إليه القوة العسكرية عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۖ وَكُفْرًا لِلَّهِ ﴾^(٥).

ويكون جيش المسلمين من الذكور البالغين من المسلمين، أما إدارة المعارك في عهد الرسول (ﷺ) فإن القرار العسكري كان بيده (ﷺ) وكان المسلمون يتدربون على القتال واستخدام السلاح، وفنون القتال، وكان في المدينة ميدان مخصص للتدريب العسكري. وذكر ابن حيان عن الراغب الأصفهاني قوله: ((أمر الرسول أولاً بالرفق والاقتصار على الوعظ والمجادلة الحسنة، ثم أذن له في القتال، ثم أمر بقتال من يأبى الحق بالحرب))^(٦).

وهكذا شعر الرسول (ﷺ) أنه بحاجة إلى جنود يحملون الدعوة، ويردون عنها الأعداء، إلا أنه لم يلزم أحداً من أصحابه بالتجنيد، وإنما اكتفى ببحث المؤمنين على القتال، وكان يؤثر أن يصحبه في

(١) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) سورة الأنفال: الآية: ٣٩.

(٣) المنصور فوري، محمد سليمان: رحمة للعالمين، مطبعة دار السلام، (الرياض، ١٩٩٨)، ج ١، ص ١١٦.

(٤) سورة الممتحنة: الآيتان: ٨-٩.

(٥) سورة الأنفال: الآية: ٦٠.

(٦) الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤م): تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل

أحمد، ومجموعة من الباحثين، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩٣)، ج ٢، ص ٧٣.

المعركة من أقبل على القتال عن رضى وطواعية، وكثيراً ما كان يقول للمسلمين قبيل المعارك: ((لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد))^(١) وكان الرسول (ﷺ) ينظر في الجنود قبل المعركة، فمن رأى لياقته للقتال أجازته، ومن وجده غير جاهز رده^(٢).

ولم يستعن الرسول (ﷺ) لا باليهود ولا بالمشركين في حروبه، ومما جاء عنه أنه (ﷺ) عندما كان في طريقه إلى معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، قال: ((لا يخرجن معنا رجل ليس على ديننا))، كما أن رسول الله (ﷺ) لما توجه إلى معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة، رد جماعة من اليهود، وقال: ((لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك))^(٣).

وبعد أن أنزل الله آيات الجهاد، أخذ الرسول (ﷺ) يحث الصحابة على التدريب على الرمي، وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الرمي منها: عن عقبة بن عامر (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي))^(٤).

وعرفت دولة الرسول (ﷺ) كل الاستعدادات العسكرية ونظمها مثل إحصاء عدد المقاتلين، والتسليح والتدريب، والصناعات العسكرية من السيوف والرماح وغير ذلك، والاستخبارات (التجسس العسكري)^(٥).

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٢٧.

(٢) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط ٤، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٦)، ج ٢، ص ٣٢.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٤٧، ٢١٥-٢١٦؛ للمزيد عن عدم استعانة الرسول (ﷺ) بالمشركين في حروبه ينظر: الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م): المسند الصحيح المختصر ينقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت)، الباب (٥١) كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، رقم الحديث (١٨١٧).

(٤) الإمام مسلم، الصحيح، الباب (٥٢) فضل الرمي والحث عليه، ووذم من علمه ثم نسيه، رقم الحديث ١٩١٧.

(٥) للمزيد عن ذلك يمكن الاطلاع على سرايا وغزوات الرسول (ﷺ) وتنظيمها. الواقدي: المغازي؛ الطبري: تاريخ الطبري، ج ٢.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

وهكذا بدأ الرسول (ﷺ) يهياً المجتمع المدني كله المسلمين واليهود من أجل الدفاع عن الدولة طالما أنهم مواطنين يعيشون في حدودها وتحت سلطته (ﷺ) فجاءت بنود وفقرات دستور المدينة أو (الصحيفة) لتؤكد على الدفاع الموحد عن المدينة مع تنوع الواجبات على فئات المجتمع المدني. وقد ضمنت الصحيفة لجميع مواطني المدينة حق الحماية والمساواة في المعاملة ومنهم اليهود فنصت على أنه ((من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم))^(١).

وقد اتضحت حنكة الرسول (ﷺ) في إدارة أمور المدينة المنورة، فعمل على مد جسور المودة مع اليهود واتفق معهم على التعاون والوقوف صفاً واحداً بوجه أعداء المدينة وأهلها وكل من يريد النيل منها، حتى أنه كان يعطي لليهود مقابل تعاونهم في الحروب مع المسلمين ضد الأعداء نصيباً من الغنائم^(٢) وهذا كان في بداية الأمر قبل أن يغدروا ويخونوا ويظاهروا الأعداء ضد المسلمين. مع أن الرسول عليه السلام كان قد عقد معاهدة مع اليهود وشرط عليهم ألا يظاهروا عليه عدواً: ((لما قدم رسول الله (ﷺ) إلى المدينة وادعته اليهود كلها، وكتب بينه وبينهم كتاباً. وألحق (ﷺ) كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أماناً، وشرط عليهم شروطاً، فكان مما شرط ألا يظاهروا عليه عدواً))^(٣).

وقد نظمت الصحيفة أمن الدولة داخلياً وخارجياً، وجاء فيها أن الجار كالنفس غير مضار ولا ((أثم)) ((وأن تجار حرمة إلا بإذن أهلها)) ((وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها)) ((وأن بينهم النصر على من دهم يثرب))^(٤)، وهكذا استثنى الصحيفة قريش ومن نصرها من حق الجوار، وبهذا حرمت قريش من أي تحالف يمكن أن يقوم بينها وبين اليهود.

(١) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م): كتاب الأموال، المكتبة التجارية، (القاهرة، ١٩٦٩)، ج ٢، ص ١٧.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٥٤.

(٤) ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ١٤٣.

كذلك أوضحت الصحيفة أن على القبائل الاتحاد لرد كل عدوان من الخارج، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضاً ((دون الناس)) وهم يتعاقلون بينهم، ويدهم على من سواهم، وهم على من بغى منهم^(١)، وكذلك جاء في الصحيفة ((وأن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد ﷺ))^(٢). وجعلت الصحيفة أمر إعلان الحرب والدخول في السلم من صلاحيات الرسول ﷺ على أنه لا يجوز لأحد من اليهود الخروج من المدينة لقتال أحد إلا بإذن الرسول ﷺ، ((وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ))^(٣)، وهذا ليس تقييداً لحريتهم، وإنما هو إجراء وقائي اقتضته ظروف الدولة الناشئة، خوفاً من عمليات التجسس، ونقل أخبار الدولة إلى أعدائها، ولاسيما أنها تعد في حالة حرب مع (قريش) التي أجبرت المسلمين على ترك أوطانهم وديارهم وأموالهم^(٤). كذلك نصت الصحيفة على توحيد جهود جميع أهل المدينة في السلم والحرب وجاء فيها: ((وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم...))^(٥).

أما الدفاع المشترك عن المدينة فقد ذكرته الفقرات (٣٧-٤٥) في الصحيفة وهو دفاع مشترك بين المسلمين واليهود والتي بدأت بعبارة: ((وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم...)) (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين)).

وقد اعترفت الصحيفة باليهود أمة إلى جانب الأمة الإسلامية في مجتمع المدينة مجتمع متنوع بدولة موحدة وألزمهم بالنفقة إلى جانب المسلمين في حالات الطوارئ ورد أي عدوان خارجي تتعرض له المدينة التي جعلها الرسول ﷺ حرم آمن لا يجوز فيها القتال ولا قطع الشجر...، وكما أن مكة حرم آمن لا يجوز فيها القتل وسفك الدماء لأن فيها بيت الله الحرام، فالمدينة المنورة حرم آمن لأنها مدينة رسول الله ﷺ^(٦).

(١) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٦.

(٣) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٥.

(٤) عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: عصر النبوة والخلافة الراشدة (موسوعة سفير التاريخ الإسلامي، شركة سفير، القاهرة، ١٩٩٦م)، ص٣١.

(٥) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص١٤٤.

(٦) الجميل، محمد فارس: النبي ﷺ ويهود المدينة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (الرياض، ٢٠٠٢)، ص٨٢.

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

وقد أثبتت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي (ﷺ) وتصرفاته العملية بأن الإسلام هو دين السلام وهو الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم، وأن الحرب هي استثناء، فالحرب في الإسلام ليست غاية، وإنما هي وسيلة لتحقيق السلام^(١).

الخاتمة:

عندما نكتب عن عهد النبي (ﷺ) نرى أنه ليس مجرد تاريخ يُكتب وأحداث تروى بل هو مدرسة كبرى خرّجت أعظم الرجال، وأكبر القادة الذين فتحوا البلاد، وكانوا بناءً لأعظم حضارة إنسانية زودت البشرية بزاد روعي نقي طابعه التسامح الذي أوجد وطناً للجميع دون تمييز، مع تنوع في كثير من الخصائص القومية والدينية والحضارية.

وكانت الصحيفة (دستور المدينة) أو وثيقة المدينة أكبر شاهد على مدى قرون طويلة من الزمن على إنسانية وحكمة وحنكة رسولنا الكريم (ﷺ) والتي مثلت ميلاد دولة المسلمين بقيادته (ﷺ) وباعتراف جميع المواطنين الذين عاشوا ضمن حدود هذه الدولة بالدولة وبقيادتها والتي توضحت بإحدى فقرات الصحيفة وهي: ((وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى ((محمد)) رسول الله (ﷺ)، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره)) وعلى هذا قامت دولة المدينة التي ضمت فئات سكانية متنوعة، وأعطت حرية الاعتقاد والرأي للجميع، وحرمة المدينة وحرمة المال، وحددت أعداء الدولة، وعاملت الجميع بصورة عادلة، ونظمت حياة سكان المدينة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية.

فمن الناحية الدينية أعطت الحرية الدينية الكاملة لليهود للعيش بسلام إلى جانب المسلمين، فلكل دينه، وهذا ما أشارت له الصحيفة في إحدى فقراتها ((... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم...)). ومن الناحية الاقتصادية هناك التعاون والتكاتف وأن الفقير يجد من يساعده في حياته ومعيشته وفك دينه ودفع فدائه وديته. وأن المسلمين ولليهود حرية وذمة مالية مستقلة لكل منهما ولاسيما وقت السلم.

أما اجتماعياً فإن الجميع يعيش في وطن واحد، المسلمين من المهاجرين والأنصار واليهود وغير المسلمين، فالجار له حرمة والجميع آمنون، لأن المدينة حرم آمن، وأن المجرم ينال عقابه على جرمه دون أن يعيق تنفيذ العقاب أحد. ((.. وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم)).

(١) عبد اللطيف: عصر النبوة، ص ٣٢.

وعسكرياً نصت الصحيفة على قيادة الرسول (ﷺ) لسكان المدينة جميعاً وتعاون أهل المدينة كافة ردّ كل اعتداء يقع عليها من الخارج حفاظاً على أمنهم وأمن وطنهم، وفي وقت الحرب الكل يساهم في نفقة الجيش بمقتضى حق المواطنة، أما مقومات حفظ الوطن داخلياً فهي عدم اندلاع حرب داخلية بين فئات المجتمع المدني.

مصادر البحث ومراجعته:

القرآن الكريم :

- ١- ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد الدمشقي (ت ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م): شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق: جماعة من العلماء، خرج الأحاديث: ناصر الدين الالباني ، ط٩، المكتب الاسلامي ، (بيروت، ١٩٨٨)، ج٢.
- ٢- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد، (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، ط٤، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٦)، ج٢.
- ٣- الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، ط٤، (بيروت، ١٤٠٥هـ).
- ٤- الإمام مالك بن أنس، بن مالك الأصبحي (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م): الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (دم، ١٩٨٥)، ج٢.
- ٥- الإمام مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م): المسند الصحيح المختصر ينقل العدل عن العدل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت)، الباب (٥١) كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، رقم الحديث (١٨١٧).
- ٦- الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، (ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م): تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد، ومجموعة من الباحثين، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٩٣)، ج٢.
- ٧- بباوي، نبيل لوقا: حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، دار السعادة للطباعة، (القاهرة، ٢٠١٠).
- ٨- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م): الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسنته وأيامه، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، (دمشق، ١٤٢٢هـ)،
- ٩- بطاينة، محمد ضيف الله: الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، دارب ومكتبة الكندي للنشر والتوزيع مكتبة طريق العلم، (الأردن، ٢٠١٤).

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

- ١٠- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه: رضوان محمد، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٧٨).
- ١١- البيهقي، إبراهيم بن محمد، (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م)، المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت.
- ١٢- البيهقي، أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م): دلائل النبوة ومعرفة أقوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلججي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٩٨٥)، ج ٢.
- ١٣- الجميل، محمد فارس: النبي (صلى الله عليه وسلم) ويهود المدينة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، (الرياض، ٢٠٠٢).
- ١٤- ابن حجر، أحمد بن علي، (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد، دار المعرفة، (بيروت، د.ت)، ج ١.
- ١٥- ابن حنبل، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م): المسند، المكتب الإعلامي للطباعة والنشر، ط ٢، (بيروت، د.ت)، ج ٦.
- ١٦- الخزاعي، علي بن محمد بن مسعود، (ت ٧٨٩هـ/١٣٨٧م): تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، ١٩٨٥).
١٧. أبو داود، السجستاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م): سنن أبو داود، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية، (بيروت، ١٩٨٨)، رقم الحديث ٥١٢١.
- ١٨ - الدوري، عبد العزيز: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، مكتبة المثني، مطبعة المعارف، (بغداد، ١٩٤٩).
- ١٩ - زريق، برهان: الصحيفة ميثاق الرسول، دستور المدينة المنورة - أول دستور لحقوق الإنسان، ط ٣، (د.م)، ٢٠١٥).
- ٢٠ - السرخسي، شمس الدين: (ت ٤٨٣هـ/١٠٩٠م): كتاب المبسوط، مطبعة السعادة، مصر.
- ٢١ - ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م): كتاب الأموال، المكتبة التجارية، (القاهرة، ١٩٦٩)، ج ٢.
- ٢٢ - السمهودي، علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، اعتنى به: خالد عبد الغني محفوظ، مج ١، ج ١.
- ٢٣ - ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م): عيون الأثر في فنون المغازي، الشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد، دار القلم، (بيروت، ١٩٩٣)، ج ١.

- ٢٤ - الشريف، أحمد: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، (مصر، د.ت).
- ٢٥ - شمس الدين، محمد مهدي: في الاجتماع السياسي الإسلامي، ط٢، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٩٩).
- ٢٦ - الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط٢، دار المعارف، (القاهرة، ١٩٦٧)، ج٢.
- ٢٧ - عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: عصر النبوة والخلافة الراشدة (موسوعة سفير التاريخ الإسلامي، شركة سفير، (القاهرة، ١٩٩٦م).
- ٢٨ - العربي، محمد ممدوح: دولة الرسول، في المدينة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- ٢٩ - علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٧٧).
- ٣٠ - العلي، صالح: الدولة في عهد الرسول، مطبعة المجمع العلمي العراقي، (بغداد، ١٩٨٨).
- ٣١ - العمري، أكرم ضياء: المجتمع المدني في عهد النبوة (خصائصه وتنظيماته الأولى)، المجلس العلمي، احياء التراث الاسلامي (المدينة المنورة، ٢٠٠٦ م).
- ٣٢ - غنيمات، قاسم محمد: الصناعات من الصحابة على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم)، مجلة المجلة، المجلد ٤، العدد ٣، السنة ٢٠١٦.
- ٣٣ - كبريت، محمد كبريت الحسيني، (ت ١٠٧٢هـ / ١٦٦١م): الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، تحقيق: محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠٠٤).
- ٣٤ - الكتاني، محمد عبد الحي الحسني الإدريسي، (ت ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م): التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة، تحقيق: عبد الله الخالدي، ط٢، دار الأرقم، (بيروت، د.ت)، ج٢.
- ٣٥ - ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، (بيروت، د.ت)، ج٢.
- ٣٦ - الكلاعي، سليمان بن موسى (ت ٥٦٣هـ / ١٢٣٦م): الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله، تحقيق: كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، (بيروت، ١٤١٧هـ)، ج١.
- ٣٧ - المباركفوري، صفي الدين: الرحيق المختوم، ط٨، دار المعرفة، (بيروت، ٢٠٠٧).
- ٣٨ - محمد، علي جمعة: المكابيل والموازن الشرعية، ط٢، القدس للاعلان والنشر (القاهرة، ٢٠٠١).
- ٣٩ - المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية (الموسوعة الموجزة في جزأين)، ط٣، دار الشروق، (القاهرة، ٢٠٠٦).

المدينة في عهد الرسالة
دراسة في عناصر الوحدة والتنوع
أ.د. سالمة محمود محمد

- ٤٠ - المقدسي، أبي عبد الله محمد، (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩١).
- ٤١ - الملاح، هاشم يحيى: الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، دار ابن الأثير، (الموصل، ٢٠٠٤).
- ٤٢ - المنصور فوري، محمد سليمان: رحمة للعالمين، مطبعة دار السلام، (الرياض، ١٩٩٨)، ج ١.
- ٤٣ - ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ / ١٣١١ م): لسان العرب، تحقيق: مجموعة من الأساتذة في دار المعارف، دار المعارف، (القاهرة، د.ت)، ج ٢.
- ٤٤ - النووي، أبو زكريا يحيى بن شريف بن مري، (ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م): شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، ط٢، (بيروت، ١٣٩٢ هـ)، ج ٧.
- ٤٥ - الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري، أبو منصور، (ت ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م): تهذيب اللغة، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، ٢٠٠١ م)، ج ١٣.
- ٤٦ - ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ / ٨٢٨ أو ٨٣٣ م): السيرة النبوية، علق عليها وخرج أحاديثها: عمر عبد السلام تدمري، ط٣، دار الكتاب العربي، (بيروت، ١٩٩٠)، ج ١.
- ٤٧ - ولفنسون، إسرائيل: تاريخ اليهود في بلاد العرب، مطبعة الاعتماد، (مصر، ١٩٢٧).
- ٤٨ - ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ١٢٢٩ هـ / ١٨١٣ م): معجم البلدان، دار صادر، (بيروت، ١٩٧٧).
- ٤٩ - اليعقوبي، أحمد بن إسحاق، (ت بعد ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م): البلدان، تحقيق: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م).
- ٥٠ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م): تاريخ اليعقوبي، بيروت.

المصادر من شبكة المعلومات الدولية:

- ١- بولاج، علي: وثيقة المدينة المنورة: وثيقة السلام في مجتمع متعدد الثقافات والأديان، مقال منشور على الموقع الإلكتروني www.rabitat-alwaha.net
- ٢- جمعة، علي: وثيقة المدينة ودستور المواطنة، مقال منشور على الأنترنيت www.digital.ahram.org.eg